- ٢١ -

إلى الرفيق الأعلى

٨١ يوما مرت على النبى بعد أن عاد من الحج.. عاش خلالها فى المدينة يعلم الناس كيف يؤدون الفرائض، وكيف يكون سلوكهم وكيف يتعبدون ..كانت المدينة تسبح فى أضواء من أنوار الروحانية .. فأعظم من عرفته الحياة، يسير بينهم.. يرونه فى المسجد، ويرونه فى الأسواق.. ويرونه وهو يداعب الصغار.. ويرونه عابدا خاشعا زاهدا، ويرونه كتلك التى يراها ويحسها الناس وهم يعيشون فى عهد رسول الله.. آخر من جاءه وحى السماء..

كم كانوا يتمنون أن تمتد أيام الرسول..

ولكن الرسالة قد اكتملت.. والأمانة قد أداها النبى على أكمل وجه.. إن الصورة اليوم مشرقة.. كم تختلف الحياة اليوم عن الحياة قبل ذلك بثلاث وعشرين عاما.. حيث كانت مكة تعيش فى أوهام حياة الأجداد، .. وأساطير الأولين.

والمدينة منقسمة على نفسها.. لأن العداوة بين الأوس والخزرج تجعل الحياة بلا طعم، يزكى هذا الخلاف وتلك العداوة يهود المدينة..

والقبائل الأخرى عاكفة على أصنامها وتقاليدها البالية.. وشبه الجزيرة العربية كلها.. قبائل متنافرة متباعدة، لا مكانة لها، ولا مجد ولا تاريخ.

وها هى الدولة الإسلامية قد اكتمل إطارها، يحكمها أعظم الدساتير، إنه الدستور الربانى.. الدستور الذى وضعه خالق الكون.. إنه القرآن الكريم، وسنة النبى العظيم، لأن النبى بجانب إنه بنى مرسل، فهو مشرع من أعظم المشرعين، لإنه لا ينطق عن الهوى.

إن الدولة التى اكتمل لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية أصبحت من أعظم القوى فى العالم، وقد آن للإسلام أن ينطلق ليبشر بقيمه وحضارته العالم، والنبى يطلق شرارة البدء يذانا بالفتوحات الإسلامية الكبرى، التى بدأ زحفها الكاسح فى زمن خليفة رسول الله أبى بكر، ثم الفاروق عمر ابن الخطاب ثم واصل الإسلام زحفه الكاسح، ليصل الإسلام إلى مساحات شاسعة من الأرض.. ويحقق انتصارات لم تكن تخطر على بال.. بل استطاع أن يحطم الامبراطورية الفارسية، والامبراطورية الرومانية، ويمتد الزحف العجيب بعد ذلك من الصين حتى المحيط الأطلنطى، ثم يضم أسبانيا ويصل الزحف العظيم إلى جنوب فرنسا !.

إن النبى الكريم يطلق شرارة هذه الفتوحات عندما يجهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد للانطلاق للانتقام لشهداء معركة مؤتة الذى سقط فيها والده زيد بن حارثة شهيدا..

ولكن النبى كان يشعر أن حياته قد أوشكت على الغروب.. وانه قد اقترب لقاؤه بخالقه.. وروحه العظيمة تهفو إلى هذا اللقاء. وتزداد نصائحه للمسلمين.. وتزداد عبادته وتهجده.. فيكثر من الصلاة والصيام.. ويكثر من القعود مع الناس يذكرهم ويعظهم ويعرفهم بما يجهلون من أمور دينهم.. ويأتى هذا اليوم الذى خرج فيه مع مولاه أبى مويهبة إلى المقابر ليزور موتى المسلمين، يترحم عليهم فى البقيع..

- السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. لو تعلمون ما أنجاكم الله منه، أقبلت الفتنة كقطع الليل المظلم تتبع آخرها أولها، الأخيرة شر من الأولى.

وقال لأبى مويهبة:

- يا أبا مويهبة. أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة..

- بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة..

فقال عليه الصلاة والسلام:

- لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة.

وعاد النبى إلى بيته، وكانت زوجته عائشة تشكو الصداع، وكان الرسول قد ابتدأ يشعر بأعراض المرض، فلما سمع عائشة تشكو الصداع وتقول:

- وارأساه.

قال لها النبى الكريم:

- وما يضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك.

وترد عليه عائشة:

- واثكلاه، والله إنك لتحب موتى، فلو كان ذلك لظللت يوما معرسا ببعض أزواجك.

ويبتسم الرسول وهو يقول لها:

- بل أنا وارأساه.

ومرض النبى، وأقبلت الفتن كما تنبأ ﷺ كقطع الليل المظلم، فمسيلمة الكذاب يدعى النبوة فى اليمامة، وطليحة بن خويلد يدعى النبوة فى بلاد أسد، بينما يعسكر جيش أسامة بن زيد فى الجرف استعدادا لملاقاة الروم.

وكم شعر المسلمون بالأحزان العميقة، خوفا على نبيهم..

ترى هل يرحل أحب الناس إلى الله ؟

وكيف يمكنهم أن يتلقوا هذا النبأ الفاجع..

وماذا تكون عليه الحياة بلا رسول الله ؟

ما أن علمت المدينة بمرض الرسول، حتى امتلأت النفوس بالأحزان . . انهم يذكرون كيف نعى النبى ﷺ نفسه منذ فترة وجيزة عندما خطب خطبة الوداع . .

-« أيها الناس: اسمعوا قولى . . فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبدا ».

وآخر آيات القرآن الكريم تنعى رسول الله . .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

. . ثم ها هو مع مولاه أبى مويهبة يقول له صراحة: بأنه خير فاختار لقاء ربه والجنة . .

تذكر الناس ذلك . . وخشوا على نبيهم . . ثم أصبحت الصورة واضحة تماما . . عندما خرج النبى وقد اشتد عليه المرض، فقال للناس صراحة فى خطبة له فى المسجد:

- «بلغنى انكم تخافون موت نبيكم . . هل خلد من قبلى نبى فيمن بعث إليكم فأخلد فيكم. إلا وأنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى.

ثم يقول صراحة لعمه العباس عندما رأى العباس رؤيا، قصها على النبى الكريم، وكانت رؤيا العباس انه رأى فى منامه القمر وقد رفع إلى السماء.

فيقول له الرسول الكريم: إنه ابن أخيك . .

. . وتتقدم إليه فاطمة ووالدها العظيم يعانى آلام المرض، وهى تبكى لمرض والدها العظيم . . فيقربها إليه، ويسر إليها بكلمات فتبكى، ثم يسر إليها بكلمات فتبتسم . . إن فاطمة بكت عندما سمعت من والدها قوله:

- إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى هذا العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلى..

وقد ابتسمت فاطمة عندما طمأنها والدها العظيم، بأنها ستكون أول أهله لحاقا به..

-« إنك أول أهل بيتى لحاقا بى، ونعم السلف أنا لك.. ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة »..

الدلائل كلها إذن تشير إلى اقتراب الرحيل.. فتفيض القلوب بالحزن واللوعة.. ويخيم على المدينة أحزان كثيرة.. وعلى صدرها تجثم آلام صعبة.

لقد شاهد الناس وعرفوا أن النبى عندما أصابه المرض.. خرج يمشى، وهو معصوب الرأس، يستند إلى على بن أبى طالب، والفضل بن العباس، حتى وصل بيت عائشة، وعندما اشتد عليه الوجع طلب منهم أن يصب عليه ماء من سبع قرب، من آبار مختلفة، وخرج للناس وهو عاصب رأسه، وجلس على المنبر، ثم صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، ثم قال:

- إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله..

وما أن سمع أبو بكر هذه الكلمات، حتى عرف أن النبى ينعى نفسه، وأنه سوف يلحق بربه، فبكى وقال:

- بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا..

وقال الرسول الكريم:

- على رسلك يا أبا بكر.. انظروا هذه الأبواب اللافظة (النافذة) فى المسجد فسدوها إلا بيت أبى بكر، فأنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه..

وكان بعض الناس قد استكثروا أن يقود أسامة بن زيد، وهو ابن سبعة عشر عاما جيشا لمجابهة الروم، على رأس جيش كان من جنوده أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب.. فخرج النبى.. والنبى لا ينطق عن الهوى فقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إماراته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وانه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها..

وخرج أسامة إلى (الجرف) فى انتظار أمر الرسول بالتحرك غير أن المرض كان قد اشتد بالنبى.. وقد تراءى لعمه العباس أن يلده (يعطيه دواء).. وأفاق الرسول وسأل عمن فعل ذلك، فقالوا انه عمك العباس.. وكان عنده من نسائه أم سلمة، وميمونة، وبعض نساء المسلمين، وأسماء بنت عميس، وسأل لماذا فعلوا ذلك فقال له عمه العباس، إنهم فعلوا ذلك خشية أن يكون قد أصيب (بذات الجنب)..

فقال الرسول الكريم: إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به ثم أمر ألا يبقى أحد فى البيت ما عدا عمه العباس.

وعندما اشتد عليه المرض أمر النبى أبا بكر أن يصلى بالناس.

وقالت له عائشة عندما سمعت منه أنه يأمر بأن يصلى الصديق بالناس:

- يا نبى الله. إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن..

- مروه فيصل بالناس.

ولما أعادت عائشة قولها، قال الرسول الكريم:

- إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس..

ثلاثة عشر يوما عانى فيها النبى الكريم آلام المرض.. وفى أثناء مرضه ﷺ، كان يخرج إلى الناس، واعظا لهم، ومذكرا، ومودعا أيضا..

والنبى العظيم فى رحلة مرضه هذه يريد وهو يودع الحياة، أن يوصى المسلمين بما يصلح أمورهم.. فأخذ يوصى بالمهاجرين الأنصار، ويذكر الناس إن كان لأحد حق عليه..

انه يخرج إليهم متوكئا على الفضل بن العباس، ليقول للناس بعد أن يحمد الله ويثنى عليه:

- فمن كنت قد جلدت له ظهرا، فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى.. ألا وأن أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له أو حللنى فلقيت الله وأنا طيب النفس.. وقد أرى أن هذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا..

وقال لهم أيضا..

- من كان عنده شئ فليؤده ولا يقل: فضوح الدنيا.! إلا أن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة.

وتبلغ عظمة النبى منتهاها.. انه وهو يشعر بأوجاع المرض، لا ينسى انه نبى بشر وانه سوف يودع الدنيا.. وسوف يودعها وقد أكمل على أكمل وجه كل ما كلفه به سبحانه وتعالى.. فلا بقاء لأحد فى الدنيا.. البقاء لله وحده.. إنه يخرج إلى الناس يوصيهم وصاياه الأخيرة.. فيقوم مقاوما المرض.. معصوب الرأس يجر رجله جرا، وعلى أول درجات المنبر، يقوم خطيبا فى الناس:

-« أيها الناس: بلغنى إنكم تخافون موت نبيكم، هل خلد نبى من قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم..؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا.. وأوصى المهاجرين فيما بينهم.. فإن الله تعالى يقول:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

وإن الأمور تجرى بإذن الله.. ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد.. ومن غالب الله غلبه.. ومن خادع الله خدعه..

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢].

وأوصيكم بالأنصار خيرا، فإنهم الذين آمنوا تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم..

ألم يشاطروكم فى الثمار ؟

ألم يواسوكم فى الديار ؟

ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟

ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فيهم، فيقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم.

ألا ولا تستأثروا عليهم..

ألا وأنى فرط لكم، وانتم لاحقون بى.

ألا فإن موعدكم الحوض.. ألا فمن أحب أن يرده علىّ غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى ».

ما أعظمك وما أروعك يا سيد المرسلين.. فى شدة المرض تخرج إلى الناس.. وتوصيهم بكلماتك البليغة العميقة، أن يتراحموا فيما بينهم.. وأن يذكروا فضل بعضهم على بعض.. فالوفاء شيمة من شيمك الرفيعة..

إنه يقول لهم إنه فرطهم.. أى سبقهم إلى عالم الخلود.. وإنهم سوف يلحقون به.. وأنه يتمنى ألا ينسى بعضهم فضل بعض.. الأنصار آزروا

النبى وجاهدوا معه وناصروا دينه، وفتحوا بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين.. فما ينبغى أن يكون بينهما إلا ما بين الأخوة..

وعاد النبى إلى بيت عائشة.. يعانى من أوجاع المرض.. ولكنه كان صابرا.. ومن غير محمد بن عبد الله يملك تلك الطاقة الهائلة من الصبر والرضا بقضاء الله.. فهو أقرب الناس إلى الله.. وأعرف الناس بالله.. إنه يخرج إلى المسلمين فى صلاة الصبح.. فى نفس اليوم الذى قبض فيه.. يوم الاثنين فى أول الربيعين فى العام الحادى عشر الهجرى (٨ يونيو سنة ٦٣٢م).. وكان الجو شديد الحرارة.. وكم كانت فرحة المسلمين غامرة عندما رأوه يدخل المسجد، وقد خيل إليهم أنه برئ من المرض وكادوا يفتنون.. فلم يملأ قلوبهم فرح مثل فرحهم لرؤية الرسول الكريم، وقد عاد إليهم سليما معافى.

ما أحلى أيام الرسول.. وكلام الرسول.. وعظات الرسول، وسلوك الرسول ..وحلم الرسول.. انه يعود بينهم فى صباح هذا اليوم، وتحدث اليهم بصوت مملتئ ووجه مشرق وعلى وجهه ابتسامة مضيئة..

- «أيها الناس.. سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وانى والله ما تمسكون على بشئ، إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن. ولعن الله قوما اتخذوا قبورهم مساجد».

وعاد النبى إلى بيت عائشة، وفرحة المسلمين برؤية النبى أنستهم أنه مريض، وأنستهم أنه يحذرهم الفتنة بعد موته.. أنستهم كل شئ إلا أن النبى بطلعته البهية قد خطبهم.. وكان صوته قويا ولا أثر للمرض فيه ولم يدروا إنها صحوة الموت.. لقد استأذن الصديق النبى أن يذهب إلى داره (بالسنح) وسمح له النبى.

وذهب المسلمون إلى أعمالهم وقد زالت عنهم غشاوة الأحزان.. وكان النبى قد أوصى أن يوزع ما بقى عنده من مال على فقراء المسلمين (سبعة دنانير) حتى يلاقى الله ولا يملك من متاع الدنيا شيئا!

وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى تحكى عن ساعات الرسول الأخيرة، رجع إلىّ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل عليه رجل من آل أبى بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ فى يده نظرة عرفت أنه يريده فقلت يا رسول الله:

اتحب أن أعطيك السواك؟

قال: نعم..

فأخذته فمضغته له، حتى لينته، ثم أعطته اياه.. فاستنى به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله ﷺ، يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول:

- بل الرفيق الأعلى والجنة.

فقلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق.

وقُبِضَ رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى، فمن سفهى وحداثة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى. (معنى ألتدم: أضرب وجهى، وألطم).

.. وترى فاطمة بنت النبى والدها وقد فارق الدنيا، فتبكى أعظم رسل الله..

- أبتاه.. أبتاه.. يا أبتاه..

أجاب رباً دعاه..

يا أبتاه..

جنة الفردوس مأواه..

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وبسرعة انتشر خبر وفاة محمد عليه الصلاة والسلام فإذا بالناس يتوافدون والحزن يعتصر قلوبهم.. والدموع تملأ عيونهم.. إن أعظم من عرفته الحياة قد ترك الدنيا بعد أن ملأها بنور الإيمان والإسلام..

والنبى العظيم الذى جاء مدينتهم مهاجرا منذ عشر سنوات، ومدينتهم منقسمة على نفسها.. يرحل عنها اليوم وهى توشك أن تكون عاصمة الدنيا كلها..

ترى أى آلام تلك كانت تفعل فى النفوس.. والحب والحنان والوفاء والشجاعة والخشوع.. والتقوى والرجولة.. والفضيلة والنبل والشهامة والإخلاص.. والزهد والورع والحياء.. والبلاغة.. كل هذه القيم متجسدة فى هذا العظيم الذى سيرقد تحت الثرى..

ولكنها مشيئة الله وقدره، ولا راد لمشيئته، قيوم السماء والأرض، فقد اختار حبيبه إلى جواره..

إن الناس يتجمعون حول بيت الرسول الكريم.. الفاجعة تهزهم من الأعماق، حتى أن رجلا كعمر بن الخطاب بجلده وقوة شكيمته، لم يحتمل هذا الخبر، فتهزه الفجيعة، فيتوعد الناس.. انه لا يريد أن يسمع أن سيد البشر قد مات.. فإذا به يخطب بين الناس:

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى، وأن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل انه قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!

عمر بن الخطاب.. بكل شجاعته، وجلده لم يقو على تلقى خبر انتقال الرسول الكريم إلى أعظم جوار.. ترى وقد هزه ألم الفراق، قد نسى فى غمرة أحزانه العميقة، ما خاطب به نبيه..

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ويأتى الصديق من داره فى السنح.. ويدخل على نبيه.. وصديق طفولته وصباه وشبابه ورفيقه فى الغار.. يدخل على صديق العمر كله.. فيرفع الغطاء عن الوجه الطاهر ويقبله ويقول له كلمات تخرج من حنايا القلب:

- «بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. طبت حيا وميتا.. أما الموته التى كتبت عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أخرى»..

وخرج إلى الناس، ومازال عمر يتوعد الناس، فيصعد المنبر، وقال لهم كلماته الرصينة الخالدة.. بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- «أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت».

- ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وساد الحزن والصمت - ولاذ ابن الخطاب فى حزن عميق..

انه يوم لا يمكن أن تنساه ذاكرة الزمن.. يوم الاثنين الموافق الثانى عشر من ربيع الأول من العام الحادى عشر الهجرى.. هذا اليوم الذى غادر فيه رسول الله دنيانا..

وفى هذه الظروف الحزينة، حدث أن تشاور الأنصار فيما بينهم من يخلف رسول الله، وأراد بعضهم أن يتولى الخلافة سعد بن عبادة.. وكان اجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة، وعلم أبو بكر وعمر بذلك، فتوجها إلى هذه السقيفة، ودار حوار بينهما وبين الأنصار، وانتهى الأمر بمبايعة الصديق بالخلافة..

وكان على بن أبى طالب وابن عمه الفضل بن العباس وعمه العباس، وقثم بن العباس، مشغولون بجهاز الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد غسل الرسول الكريم يوم الثلاثاء بعد مبايعة الصديق بالخلافة.. غسل وعليه قميصه، وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره.. وأخذ المسلمون يدخلون عليه يودعونه الوداع الأخير، ويصلون عليه بلا إمام..

ودفن عليه الصلاة والسلام فى منتصف ليلة الأربعاء فى نفس المكان الذى قبض فيه..

وكان قد اختلف فى أى مكان يدفن رسول الله، وحسم أبو بكر هذا الخلاف بقوله انه سمع الرسول الكريم يقول:

- «ما يقبض نبى إلا ودفن حيث قبض»..

والذين نزلوا قبره عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ.

وقد عبر على بن أبى طالب عن مشاعره تجاه ابن عمه العظيم، ونبيه الجليل بقوله:

- «لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء.. لولا إنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لانقذنا عليك ماء الشئون ومكان الداء مماطلا، والكمد محالفا، ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه.. بأبى أنت وأمى.. أذكرنا عند ربك.. واجعلنا من بالك»

ويودعه بتلك الكلمات المعبرة الحزينة:

- إن الصبر لجميل إلا عنك، وأن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل، وأنه قبلك وبعدك لجلل..

و.. مضت أيام رسول الله ﷺ.. أعظم إنسان عرفه الوجود فى كل العصور.. غادر دنيانا.. بعد أن أثار القلوب.. وحث على العلم وجعله

فريضة على كل مسلم ومسلمة.. وكان قدوة وإماما للمتقين فى كل زمان وكل مكان..

غادر دنيانا اليتيم الذى زرع الرحمة فى القلوب، وراعى الغنم الذى أقام أعظم دولة عرفها التاريخ..

انتقل إلى الرحاب القدسية.. من أشاع فى الناس أعظم المبادىء وأنبل القيم.. وأضاء العقول.. وأيقظ الضمائر.. ورسم المنهج الذى يجعل من الإنسان إنسانا فى كل عصر وفى كل آن..

جاء إلى الدنيا والظلام يغطى كل شىء.. وغادرها والنور يشرق على كل شىء..

وسيظل حيا فى قلوب كل الذين آمنوا برسالته، وعرفوا قدره العظيم، وما جاء به من الله عز وجل علاه من تشريف وتقدير..

وستظل رسالته متمثلة فى الكتاب والسنة نور هداية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!.

.. و.. سلام عليك وصلاته يا آخر الأنبياء والمرسلين.

* * *

المراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح البخارى.
- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير
- تاريخ الأمم والملوك. للطبرى
- السيرة النبوية. لابن هشام
- إحياء علوم الدين. للغزالى
- الملل والنحل.. للشهرستانى
- الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام. د. على عبد الواحد وافى
- إعجاز القرآن. للباقلانى
- الأصنـــام. لابن الكلبى
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين. لعباس محمود العقاد.
- محمد. د. محمد حسين هيكل
- خاتم النبيين. الشيخ محمد أبو زهرة.
- الإصابة فى أسماء الصحابة. لابن حجر.
- الله. عباس محمود العقاد.
- شرح نهج البلاغة. ابن أبى الحديد.

- نبى البر (المختار من سيرة ابن هشام). تحقيق إبراهيم الإبيارى.
- رياض الصالحين. الإمام يحيى بن شرف الدين النووى.
- القرآن والمرأة. الشيخ محمود شلتوت.
- سيرة النبى العربى. أحمد التاجى.
- السقيفة والخلافة. عبد المقصود عبد الفتاح.
- فجر الإسلام. أحمد أمين.
- المرأة فى مجتمع الأنبياء. المهندس أحمد الجبالى.
- الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية. د. عبد العظيم رمضان.
- محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار.
- الفتوحات العربية الكبرى. جون باجوت جلوب ترجمة. خيرى حماد.
- إسلاميات. خالد محمد خالد.

الخرائط:

عن كتاب الفتوحات العربية الكبرى لجلوب وترجمة خيرى حماد.

- ٢١ -

إلى الرفيق الأعلى

٨١ يوما مرت على النبى بعد أن عاد من الحج.. عاش خلالها فى المدينة يعلم الناس كيف يؤدون الفرائض، وكيف يكون سلوكهم وكيف يتعبدون ..كانت المدينة تسبح فى أضواء من أنوار الروحانية .. فأعظم من عرفته الحياة، يسير بينهم.. يرونه فى المسجد، ويرونه فى الأسواق.. ويرونه وهو يداعب الصغار.. ويرونه عابدا خاشعا زاهدا، ويرونه كتلك التى يراها ويحسها الناس وهم يعيشون فى عهد رسول الله.. آخر من جاءه وحى السماء..

كم كانوا يتمنون أن تمتد أيام الرسول..

ولكن الرسالة قد اكتملت.. والأمانة قد أداها النبى على أكمل وجه.. إن الصورة اليوم مشرقة.. كم تختلف الحياة اليوم عن الحياة قبل ذلك بثلاث وعشرين عاما.. حيث كانت مكة تعيش فى أوهام حياة الأجداد، .. وأساطير الأولين.

والمدينة منقسمة على نفسها.. لأن العداوة بين الأوس والخزرج تجعل الحياة بلا طعم، يزكى هذا الخلاف وتلك العداوة يهود المدينة..

والقبائل الأخرى عاكفة على أصنامها وتقاليدها البالية.. وشبه الجزيرة العربية كلها.. قبائل متنافرة متباعدة، لا مكانة لها، ولا مجد ولا تاريخ.

وها هى الدولة الإسلامية قد اكتمل إطارها، يحكمها أعظم الدساتير، إنه الدستور الربانى.. الدستور الذى وضعه خالق الكون.. إنه القرآن الكريم، وسنة النبى العظيم، لأن النبى بجانب إنه بنى مرسل، فهو مشرع من أعظم المشرعين، لإنه لا ينطق عن الهوى.

إن الدولة التى اكتمل لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية أصبحت من أعظم القوى فى العالم، وقد آن للإسلام أن ينطلق ليبشر بقيمه وحضارته العالم، والنبى يطلق شرارة البدء يذانا بالفتوحات الإسلامية الكبرى، التى بدأ زحفها الكاسح فى زمن خليفة رسول الله أبى بكر، ثم الفاروق عمر ابن الخطاب ثم واصل الإسلام زحفه الكاسح، ليصل الإسلام إلى مساحات شاسعة من الأرض.. ويحقق انتصارات لم تكن تخطر على بال.. بل استطاع أن يحطم الامبراطورية الفارسية، والامبراطورية الرومانية، ويمتد الزحف العجيب بعد ذلك من الصين حتى المحيط الأطلنطى، ثم يضم أسبانيا ويصل الزحف العظيم إلى جنوب فرنسا !.

إن النبى الكريم يطلق شرارة هذه الفتوحات عندما يجهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد للانطلاق للانتقام لشهداء معركة مؤتة الذى سقط فيها والده زيد بن حارثة شهيدا..

ولكن النبى كان يشعر أن حياته قد أوشكت على الغروب.. وانه قد اقترب لقاؤه بخالقه.. وروحه العظيمة تهفو إلى هذا اللقاء. وتزداد نصائحه للمسلمين.. وتزداد عبادته وتهجده.. فيكثر من الصلاة والصيام.. ويكثر من القعود مع الناس يذكرهم ويعظهم ويعرفهم بما يجهلون من أمور دينهم.. ويأتى هذا اليوم الذى خرج فيه مع مولاه أبى مويهبة إلى المقابر ليزور موتى المسلمين، يترحم عليهم فى البقيع..

- السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. لو تعلمون ما أنجاكم الله منه، أقبلت الفتنة كقطع الليل المظلم تتبع آخرها أولها، الأخيرة شر من الأولى.

وقال لأبى مويهبة:

- يا أبا مويهبة. أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة..

- بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة..

فقال عليه الصلاة والسلام:

- لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة.

وعاد النبى إلى بيته، وكانت زوجته عائشة تشكو الصداع، وكان الرسول قد ابتدأ يشعر بأعراض المرض، فلما سمع عائشة تشكو الصداع وتقول:

- وارأساه.

قال لها النبى الكريم:

- وما يضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك.

وترد عليه عائشة:

- واثكلاه، والله إنك لتحب موتى، فلو كان ذلك لظللت يوما معرسا ببعض أزواجك.

ويبتسم الرسول وهو يقول لها:

- بل أنا وارأساه.

ومرض النبى، وأقبلت الفتن كما تنبأ ﷺ كقطع الليل المظلم، فمسيلمة الكذاب يدعى النبوة فى اليمامة، وطليحة بن خويلد يدعى النبوة فى بلاد أسد، بينما يعسكر جيش أسامة بن زيد فى الجرف استعدادا لملاقاة الروم.

وكم شعر المسلمون بالأحزان العميقة، خوفا على نبيهم..

ترى هل يرحل أحب الناس إلى الله ؟

وكيف يمكنهم أن يتلقوا هذا النبأ الفاجع..

وماذا تكون عليه الحياة بلا رسول الله ؟

ما أن علمت المدينة بمرض الرسول، حتى امتلأت النفوس بالأحزان . . انهم يذكرون كيف نعى النبى ﷺ نفسه منذ فترة وجيزة عندما خطب خطبة الوداع . .

-« أيها الناس: اسمعوا قولى . . فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبدا ».

وآخر آيات القرآن الكريم تنعى رسول الله . .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

. . ثم ها هو مع مولاه أبى مويهبة يقول له صراحة: بأنه خير فاختار لقاء ربه والجنة . .

تذكر الناس ذلك . . وخشوا على نبيهم . . ثم أصبحت الصورة واضحة تماما . . عندما خرج النبى وقد اشتد عليه المرض، فقال للناس صراحة فى خطبة له فى المسجد:

- «بلغنى انكم تخافون موت نبيكم . . هل خلد من قبلى نبى فيمن بعث إليكم فأخلد فيكم. إلا وأنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى.

ثم يقول صراحة لعمه العباس عندما رأى العباس رؤيا، قصها على النبى الكريم، وكانت رؤيا العباس انه رأى فى منامه القمر وقد رفع إلى السماء.

فيقول له الرسول الكريم: إنه ابن أخيك . .

. . وتتقدم إليه فاطمة ووالدها العظيم يعانى آلام المرض، وهى تبكى لمرض والدها العظيم . . فيقربها إليه، ويسر إليها بكلمات فتبكى، ثم يسر إليها بكلمات فتبتسم . . إن فاطمة بكت عندما سمعت من والدها قوله:

- إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى هذا العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلى..

وقد ابتسمت فاطمة عندما طمأنها والدها العظيم، بأنها ستكون أول أهله لحاقا به..

-« إنك أول أهل بيتى لحاقا بى، ونعم السلف أنا لك.. ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة »..

الدلائل كلها إذن تشير إلى اقتراب الرحيل.. فتفيض القلوب بالحزن واللوعة.. ويخيم على المدينة أحزان كثيرة.. وعلى صدرها تجثم آلام صعبة.

لقد شاهد الناس وعرفوا أن النبى عندما أصابه المرض.. خرج يمشى، وهو معصوب الرأس، يستند إلى على بن أبى طالب، والفضل بن العباس، حتى وصل بيت عائشة، وعندما اشتد عليه الوجع طلب منهم أن يصب عليه ماء من سبع قرب، من آبار مختلفة، وخرج للناس وهو عاصب رأسه، وجلس على المنبر، ثم صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، ثم قال:

- إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله..

وما أن سمع أبو بكر هذه الكلمات، حتى عرف أن النبى ينعى نفسه، وأنه سوف يلحق بربه، فبكى وقال:

- بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا..

وقال الرسول الكريم:

- على رسلك يا أبا بكر.. انظروا هذه الأبواب اللافظة (النافذة) فى المسجد فسدوها إلا بيت أبى بكر، فأنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه..

وكان بعض الناس قد استكثروا أن يقود أسامة بن زيد، وهو ابن سبعة عشر عاما جيشا لمجابهة الروم، على رأس جيش كان من جنوده أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب.. فخرج النبى.. والنبى لا ينطق عن الهوى فقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إماراته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وانه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها..

وخرج أسامة إلى (الجرف) فى انتظار أمر الرسول بالتحرك غير أن المرض كان قد اشتد بالنبى.. وقد تراءى لعمه العباس أن يلده (يعطيه دواء).. وأفاق الرسول وسأل عمن فعل ذلك، فقالوا انه عمك العباس.. وكان عنده من نسائه أم سلمة، وميمونة، وبعض نساء المسلمين، وأسماء بنت عميس، وسأل لماذا فعلوا ذلك فقال له عمه العباس، إنهم فعلوا ذلك خشية أن يكون قد أصيب (بذات الجنب)..

فقال الرسول الكريم: إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به ثم أمر ألا يبقى أحد فى البيت ما عدا عمه العباس.

وعندما اشتد عليه المرض أمر النبى أبا بكر أن يصلى بالناس.

وقالت له عائشة عندما سمعت منه أنه يأمر بأن يصلى الصديق بالناس:

- يا نبى الله. إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن..

- مروه فيصل بالناس.

ولما أعادت عائشة قولها، قال الرسول الكريم:

- إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس..

ثلاثة عشر يوما عانى فيها النبى الكريم آلام المرض.. وفى أثناء مرضه ﷺ، كان يخرج إلى الناس، واعظا لهم، ومذكرا، ومودعا أيضا..

والنبى العظيم فى رحلة مرضه هذه يريد وهو يودع الحياة، أن يوصى المسلمين بما يصلح أمورهم.. فأخذ يوصى بالمهاجرين الأنصار، ويذكر الناس إن كان لأحد حق عليه..

انه يخرج إليهم متوكئا على الفضل بن العباس، ليقول للناس بعد أن يحمد الله ويثنى عليه:

- فمن كنت قد جلدت له ظهرا، فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى.. ألا وأن أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له أو حللنى فلقيت الله وأنا طيب النفس.. وقد أرى أن هذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا..

وقال لهم أيضا..

- من كان عنده شئ فليؤده ولا يقل: فضوح الدنيا.! إلا أن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة.

وتبلغ عظمة النبى منتهاها.. انه وهو يشعر بأوجاع المرض، لا ينسى انه نبى بشر وانه سوف يودع الدنيا.. وسوف يودعها وقد أكمل على أكمل وجه كل ما كلفه به سبحانه وتعالى.. فلا بقاء لأحد فى الدنيا.. البقاء لله وحده.. إنه يخرج إلى الناس يوصيهم وصاياه الأخيرة.. فيقوم مقاوما المرض.. معصوب الرأس يجر رجله جرا، وعلى أول درجات المنبر، يقوم خطيبا فى الناس:

-« أيها الناس: بلغنى إنكم تخافون موت نبيكم، هل خلد نبى من قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم..؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا.. وأوصى المهاجرين فيما بينهم.. فإن الله تعالى يقول:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

وإن الأمور تجرى بإذن الله.. ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد.. ومن غالب الله غلبه.. ومن خادع الله خدعه..

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢].

وأوصيكم بالأنصار خيرا، فإنهم الذين آمنوا تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم..

ألم يشاطروكم فى الثمار ؟

ألم يواسوكم فى الديار ؟

ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟

ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فيهم، فيقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم.

ألا ولا تستأثروا عليهم..

ألا وأنى فرط لكم، وانتم لاحقون بى.

ألا فإن موعدكم الحوض.. ألا فمن أحب أن يرده علىّ غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى ».

ما أعظمك وما أروعك يا سيد المرسلين.. فى شدة المرض تخرج إلى الناس.. وتوصيهم بكلماتك البليغة العميقة، أن يتراحموا فيما بينهم.. وأن يذكروا فضل بعضهم على بعض.. فالوفاء شيمة من شيمك الرفيعة..

إنه يقول لهم إنه فرطهم.. أى سبقهم إلى عالم الخلود.. وإنهم سوف يلحقون به.. وأنه يتمنى ألا ينسى بعضهم فضل بعض.. الأنصار آزروا

النبى وجاهدوا معه وناصروا دينه، وفتحوا بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين.. فما ينبغى أن يكون بينهما إلا ما بين الأخوة..

وعاد النبى إلى بيت عائشة.. يعانى من أوجاع المرض.. ولكنه كان صابرا.. ومن غير محمد بن عبد الله يملك تلك الطاقة الهائلة من الصبر والرضا بقضاء الله.. فهو أقرب الناس إلى الله.. وأعرف الناس بالله.. إنه يخرج إلى المسلمين فى صلاة الصبح.. فى نفس اليوم الذى قبض فيه.. يوم الاثنين فى أول الربيعين فى العام الحادى عشر الهجرى (٨ يونيو سنة ٦٣٢م).. وكان الجو شديد الحرارة.. وكم كانت فرحة المسلمين غامرة عندما رأوه يدخل المسجد، وقد خيل إليهم أنه برئ من المرض وكادوا يفتنون.. فلم يملأ قلوبهم فرح مثل فرحهم لرؤية الرسول الكريم، وقد عاد إليهم سليما معافى.

ما أحلى أيام الرسول.. وكلام الرسول.. وعظات الرسول، وسلوك الرسول ..وحلم الرسول.. انه يعود بينهم فى صباح هذا اليوم، وتحدث اليهم بصوت مملتئ ووجه مشرق وعلى وجهه ابتسامة مضيئة..

- «أيها الناس.. سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وانى والله ما تمسكون على بشئ، إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن. ولعن الله قوما اتخذوا قبورهم مساجد».

وعاد النبى إلى بيت عائشة، وفرحة المسلمين برؤية النبى أنستهم أنه مريض، وأنستهم أنه يحذرهم الفتنة بعد موته.. أنستهم كل شئ إلا أن النبى بطلعته البهية قد خطبهم.. وكان صوته قويا ولا أثر للمرض فيه ولم يدروا إنها صحوة الموت.. لقد استأذن الصديق النبى أن يذهب إلى داره (بالسنح) وسمح له النبى.

وذهب المسلمون إلى أعمالهم وقد زالت عنهم غشاوة الأحزان.. وكان النبى قد أوصى أن يوزع ما بقى عنده من مال على فقراء المسلمين (سبعة دنانير) حتى يلاقى الله ولا يملك من متاع الدنيا شيئا!

وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى تحكى عن ساعات الرسول الأخيرة، رجع إلىّ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل عليه رجل من آل أبى بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ فى يده نظرة عرفت أنه يريده فقلت يا رسول الله:

اتحب أن أعطيك السواك؟

قال: نعم..

فأخذته فمضغته له، حتى لينته، ثم أعطته اياه.. فاستنى به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله ﷺ، يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول:

- بل الرفيق الأعلى والجنة.

فقلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق.

وقُبِضَ رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى، فمن سفهى وحداثة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى. (معنى ألتدم: أضرب وجهى، وألطم).

.. وترى فاطمة بنت النبى والدها وقد فارق الدنيا، فتبكى أعظم رسل الله..

- أبتاه.. أبتاه.. يا أبتاه..

أجاب رباً دعاه..

يا أبتاه..

جنة الفردوس مأواه..

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وبسرعة انتشر خبر وفاة محمد عليه الصلاة والسلام فإذا بالناس يتوافدون والحزن يعتصر قلوبهم.. والدموع تملأ عيونهم.. إن أعظم من عرفته الحياة قد ترك الدنيا بعد أن ملأها بنور الإيمان والإسلام..

والنبى العظيم الذى جاء مدينتهم مهاجرا منذ عشر سنوات، ومدينتهم منقسمة على نفسها.. يرحل عنها اليوم وهى توشك أن تكون عاصمة الدنيا كلها..

ترى أى آلام تلك كانت تفعل فى النفوس.. والحب والحنان والوفاء والشجاعة والخشوع.. والتقوى والرجولة.. والفضيلة والنبل والشهامة والإخلاص.. والزهد والورع والحياء.. والبلاغة.. كل هذه القيم متجسدة فى هذا العظيم الذى سيرقد تحت الثرى..

ولكنها مشيئة الله وقدره، ولا راد لمشيئته، قيوم السماء والأرض، فقد اختار حبيبه إلى جواره..

إن الناس يتجمعون حول بيت الرسول الكريم.. الفاجعة تهزهم من الأعماق، حتى أن رجلا كعمر بن الخطاب بجلده وقوة شكيمته، لم يحتمل هذا الخبر، فتهزه الفجيعة، فيتوعد الناس.. انه لا يريد أن يسمع أن سيد البشر قد مات.. فإذا به يخطب بين الناس:

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى، وأن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل انه قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!

عمر بن الخطاب.. بكل شجاعته، وجلده لم يقو على تلقى خبر انتقال الرسول الكريم إلى أعظم جوار.. ترى وقد هزه ألم الفراق، قد نسى فى غمرة أحزانه العميقة، ما خاطب به نبيه..

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ويأتى الصديق من داره فى السنح.. ويدخل على نبيه.. وصديق طفولته وصباه وشبابه ورفيقه فى الغار.. يدخل على صديق العمر كله.. فيرفع الغطاء عن الوجه الطاهر ويقبله ويقول له كلمات تخرج من حنايا القلب:

- «بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. طبت حيا وميتا.. أما الموته التى كتبت عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أخرى»..

وخرج إلى الناس، ومازال عمر يتوعد الناس، فيصعد المنبر، وقال لهم كلماته الرصينة الخالدة.. بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- «أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت».

- ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وساد الحزن والصمت - ولاذ ابن الخطاب فى حزن عميق..

انه يوم لا يمكن أن تنساه ذاكرة الزمن.. يوم الاثنين الموافق الثانى عشر من ربيع الأول من العام الحادى عشر الهجرى.. هذا اليوم الذى غادر فيه رسول الله دنيانا..

وفى هذه الظروف الحزينة، حدث أن تشاور الأنصار فيما بينهم من يخلف رسول الله، وأراد بعضهم أن يتولى الخلافة سعد بن عبادة.. وكان اجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة، وعلم أبو بكر وعمر بذلك، فتوجها إلى هذه السقيفة، ودار حوار بينهما وبين الأنصار، وانتهى الأمر بمبايعة الصديق بالخلافة..

وكان على بن أبى طالب وابن عمه الفضل بن العباس وعمه العباس، وقثم بن العباس، مشغولون بجهاز الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد غسل الرسول الكريم يوم الثلاثاء بعد مبايعة الصديق بالخلافة.. غسل وعليه قميصه، وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره.. وأخذ المسلمون يدخلون عليه يودعونه الوداع الأخير، ويصلون عليه بلا إمام..

ودفن عليه الصلاة والسلام فى منتصف ليلة الأربعاء فى نفس المكان الذى قبض فيه..

وكان قد اختلف فى أى مكان يدفن رسول الله، وحسم أبو بكر هذا الخلاف بقوله انه سمع الرسول الكريم يقول:

- «ما يقبض نبى إلا ودفن حيث قبض»..

والذين نزلوا قبره عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ.

وقد عبر على بن أبى طالب عن مشاعره تجاه ابن عمه العظيم، ونبيه الجليل بقوله:

- «لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء.. لولا إنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لانقذنا عليك ماء الشئون ومكان الداء مماطلا، والكمد محالفا، ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه.. بأبى أنت وأمى.. أذكرنا عند ربك.. واجعلنا من بالك»

ويودعه بتلك الكلمات المعبرة الحزينة:

- إن الصبر لجميل إلا عنك، وأن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل، وأنه قبلك وبعدك لجلل..

و.. مضت أيام رسول الله ﷺ.. أعظم إنسان عرفه الوجود فى كل العصور.. غادر دنيانا.. بعد أن أثار القلوب.. وحث على العلم وجعله

فريضة على كل مسلم ومسلمة.. وكان قدوة وإماما للمتقين فى كل زمان وكل مكان..

غادر دنيانا اليتيم الذى زرع الرحمة فى القلوب، وراعى الغنم الذى أقام أعظم دولة عرفها التاريخ..

انتقل إلى الرحاب القدسية.. من أشاع فى الناس أعظم المبادىء وأنبل القيم.. وأضاء العقول.. وأيقظ الضمائر.. ورسم المنهج الذى يجعل من الإنسان إنسانا فى كل عصر وفى كل آن..

جاء إلى الدنيا والظلام يغطى كل شىء.. وغادرها والنور يشرق على كل شىء..

وسيظل حيا فى قلوب كل الذين آمنوا برسالته، وعرفوا قدره العظيم، وما جاء به من الله عز وجل علاه من تشريف وتقدير..

وستظل رسالته متمثلة فى الكتاب والسنة نور هداية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!.

.. و.. سلام عليك وصلاته يا آخر الأنبياء والمرسلين.

* * *

المراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح البخارى.
- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير
- تاريخ الأمم والملوك. للطبرى
- السيرة النبوية. لابن هشام
- إحياء علوم الدين. للغزالى
- الملل والنحل.. للشهرستانى
- الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام. د. على عبد الواحد وافى
- إعجاز القرآن. للباقلانى
- الأصنـــام. لابن الكلبى
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين. لعباس محمود العقاد.
- محمد. د. محمد حسين هيكل
- خاتم النبيين. الشيخ محمد أبو زهرة.
- الإصابة فى أسماء الصحابة. لابن حجر.
- الله. عباس محمود العقاد.
- شرح نهج البلاغة. ابن أبى الحديد.

- نبى البر (المختار من سيرة ابن هشام). تحقيق إبراهيم الإبيارى.
- رياض الصالحين. الإمام يحيى بن شرف الدين النووى.
- القرآن والمرأة. الشيخ محمود شلتوت.
- سيرة النبى العربى. أحمد التاجى.
- السقيفة والخلافة. عبد المقصود عبد الفتاح.
- فجر الإسلام. أحمد أمين.
- المرأة فى مجتمع الأنبياء. المهندس أحمد الجبالى.
- الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية. د. عبد العظيم رمضان.
- محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار.
- الفتوحات العربية الكبرى. جون باجوت جلوب ترجمة. خيرى حماد.
- إسلاميات. خالد محمد خالد.

الخرائط:

عن كتاب الفتوحات العربية الكبرى لجلوب وترجمة خيرى حماد.